(بابل).. أين حظ العرب والمسلمين من العولمة؟

رُشح فيلم (بابل/Babel) لسبع جوائز أوسكار سنة ٢٠٠٧، وحاز على جائزة أحسن فيلم في مسابقة الكرة الذهبية (جولدن جلوب)، كما أحرز بطله (براد بيت) جائزة أفضل دور مساعد في المسابقة نفسها، وظل الفيلم محور اهتمام الصحافة لفترة طويلة كما هو حال الأفلام المهمة التي تختار مكانها بعناية في صفحات التاريخ السينمائي.

يحكي مخرج الفيلم المكسيكي (أليخاندرو غونزاليس إينياريتو) في فيلمه قصة معقدة من ثلاثة محاور في ثلاث دول، متعمداً تسليط الضوء على المتناقضات والحواجز التي تفرق العالم إلى شعوب وثقافات ورؤى مختلفة، ومستمداً رؤيته من أسطورة بابل الواردة في التوراة والتي تزعم أن البشر أرادوا يوماً بناء برج في بابل ليصلوا به إلى السماء فعاقبهم الرب وبلبل ألسنتهم، فأصبحوا في اليوم التالي ولكل منهم لغته الخاصة حتى عجزوا عن التواصل فيما بينهم، وبدأت بذلك سلسلة التشعب إلى أقوام ولغات وثقافات مختلفة.

حبكة درامية معقدة

يبدأ الفيلم بزوجين أمريكيين (كيت بلانشيه) و(براد بيت) يقرران القيام برحلة سياحية إلى المغرب بهدف استعادة الوئام المفقود بينهما منذ فقد أحد أولادهما الثلاثة، وفي أثناء الرحلة في صحارى المغرب يشتري رجل بدوي من آخر مسن بندقية صيد، كان هذا الأخير قد حصل عليها هديةً من سائح ياباني، ويقدمها إلى ولديه الصغيرين ليحميا بها قطيع

الأغنام من خطر الذئاب، ولكنهما يقرران اختبار مداها من اليوم الأول فيطلق أحدهما النار على حافلة سياحية في طريق صحراوي، وتصيب الرصاصة بالمصادفة الزوجة الأمريكية في رقبتها، فيسرع الجميع إلى أقرب قرية لإسعافها، ويبدأ الخبر بالانتشار فتسرع السلطات المغربية إلى معالجة الأمر خوفاً من أن يكون العمل إرهابياً، وتبدأ الشرطة المغربية بمداهمة بيت البدوي العجوز وضربه مع زوجته ليعترفا بالأمر، فيقر ببيع البندقية إلى بدوي آخر لتبدأ مطاردة هذا الأخير مع عائلته وينتهي الأمر بإطلاق النار وقتل أحد أبنائه.

في الجهة الأخرى من العالم تقرر الخادمة المكسيكية التي بقيت مع ولدي العائلة الأمريكية لرعايتهما أن تأخذهما معها إلى المكسيك لحضور زفاف ولدها، ويستعرض الفيلم بذكاء الفروق الواضحة في ظروف معيشة الأطفال بين كل من الصحراء المغربية والعشوائيات المكسيكية والمدن الأمريكية. وفي طريق العودة إلى الولايات المتحدة يُصر ضباط الجمارك على تعقيد الأمور فيقتحم أخو الخادمة حاجز الحدود بسيارته ويفر هارباً إلى داخل البلاد بعد أن يترك أخته المسنة مع الولدين المدللين في الصحراء، وتنتهي القصة بقبض الشرطة على الخادمة وترحيلها إلى الخارج.

أما في اليابان فتشتبك الخيوط على نحو مغاير؛ إذ لا تجد المراهقة الصماء (شيكو) في ترف الحياة مع والدها المصرفي ما يعوض حاجتها إلى الحب والحنان بعد وفاة والدتها، فتطلب الدفء في علاقات عابرة مع الشباب، وإلى درجة ارتمائها في أحضان الضابط الذي يزورها في البيت بهدف التحقيق في البندقية التي أهداها والدها للبدوي المغربي وتسببت في جريمة قتل.

صورة العرب والمسلمين في الفيلم

تنوعت الآراء كثيراً في تقييم الفيلم في الصحافة العربية بين مؤيد

ومعارض، ومع أن بعض النقاد مال إلى قراءة الفيلم من منظور رؤيته الفلسفية التي ناقشت تعقيدات العولمة وتنوع الثقافات في إطار فني شائق، فإن ما يهمنا في هذا السياق هو الصورة التي قدمها بعض العرب والمسلمين المشاركين في الفيلم عن شعوبهم، والضريبة التي دفعتها تلك الشعوب لتلك المشاركة.

للوهلة الأولى، تبدو هذه الصورة في غاية التخلف بالتركيز على حياة البداوة وقسوة الصحراء، مع إهمال روعة الطبيعة المغربية وغناها الحضاري في مدنها الكبرى. وتتجسد هذه الصورة في مشهد تجمهر النساء والأطفال لرؤية السائحة المصابة وهي تتلقى العلاج في بيت إحدى النساء العجائز وكأنهم أمام مشهد لزائر من الفضاء الخارجي. ونرى هذه الصور النمطية أيضاً في اتهام الطفل البدوي لأخيه بالتحرش بأختهما الطفلة الصغيرة، في إشارة مقيتة إلى الكبت الجنسي الذي وصل إلى درجة هيام طفل صغير بأخته الصغرى في بيئة مقفرة لم تبلغها بعد منتجات العولمة المشبعة بالإباحية!

أما الصورة الأسوأ فجسّدها بعض الممثلين المغاربة في أدوار رجال الشرطة الذين لا يعرفون سوى لغة الضرب والرفس حتى في حق العجائز والأطفال، حرصاً على تبرئة ساحتهم من تهم الإرهاب أمام الغرب، في مقابل الصورة المشرّفة لتعامل سلطات الدول المتقدمة مع مواطنيها، سواء في السلوك الراقي للمحقق الياباني أو حرص الحكومة الأمريكية على إنقاذ إحدى مواطناتها لمجرد تعرضها للأذى.

من جانب آخر؛ رسم الفيلم صورة جميلة للدليل السياحي المسلم (أنور)؛ الممثل **محمد أخزم**، الذي يبذل كل جهده لمساعدة السائحَين الأمريكيَّيْن واستضافتهما في بيته إلى حين وصول حوامة الإسعاف، ثم يرفض أخذ المال جزاء على خدماته. كما يسخر الفيلم بطريقة غير مباشرة

من هاجس الأمن لدى الأمريكيين الذين يصابون بالذعر لمجرد تعرض حافلتهم لرصاصة طائشة، ويتابع السخرية من المجتمع الغربي بأسره مع تسارع وسائل الإعلام العالمية إلى نقل الخبر وتداعياته قبل أن تبرأ ساحة المسلمين من هذه التهمة.

في نهاية الفيلم، وبعد أن يتجول المُشاهد بين قصصه الموزعة على ثلاث قارات يحق له أن يتساءل: أين حظ العرب والمسلمين من العولمة؟ وهل يمكن اختزال واقع مجتمعاتنا في مظاهر الكبت الجنسي والدكتاتورية والتخلف وإرهاب العالم؟ ولماذا تدفع هذه المجتمعات ضريبة مشاركة بعض الممثلين والفنيين العرب في فيلم هوليودي لتحقيق بعض المكاسب الشخصية؟ وهل تحققت بالفعل نبوءات بعض المستقبليين[1] عن قدرة العولمة على تمييع الهوية الوطنية لشعوب (العالم الثالث)، ربما إلى درجة تجعل من المقبول لدى البعض الإساءة إلى ذواتهم ومجتمعاتهم، وبمباركة من قياداتهم بذريعة الكسب المادي البحت؟!

(١) تطلق صفة الكتاب المستقبليين (Futurists) في أحد معانيها على المفكرين المعنيين بدراسة أثر التقدم العلمي على جميع جوانب الحياة الإنسانية للمجتمعات والأفراد.